المبحث الثاني

الغربة والحنين وجماليتهما الروحية

نظرًا لسوء الأوضاع السياسية وكثرة الحروب والفتن وضيق الحال وطلب العلم، عمد الشاعر الأندلسي إلى ترك دياره ومفارقة أهله وأحبابه وخلّانه، فعانى ما عانى جرّاء ذلك من مرارة البعد في المنفى وذل الأسر والسجن، متجرّعًا حياة البؤس والغربة والحرمان. فأمدت الحياة قرائحهم وغذّت مشاعرهم فصوروا مدنهم التي تركوها واصفين شوقهم وحنينهم إلى ديارهم التي قضوا فيها أجمل الأيام، أيام الصبا والشباب، واللهو والمتعة وملازمة الأصحاب.

والأندلسي شديد التعلق بوطنه، مدافعًا عنه، ومتعصّبًا له؛ لما حققه له من أسباب السعادة ورغد العيش جعلته يتمثله وكأنه جنة الخلد. كيف لا وهو الذي عاش في بيئة جميلة رائعة، وحقق انتعاشًا اقتصاديًّا بدءًا من القرن الثالث الهجري، وقدرًا غير ضئيل من الاستقرار السياسي خلال القرنين الثالث والرابع. ومن هنا كانت الأندلس في نظرهم جنة لا شبيه لها، إذا فارقها أحسَّ بالغربة وشدة الحنين إليها، فترجم ذلك شعرًا وقيمًا جمالية مبثوثة من خلال هذا الشعر.

إنّ «الغربة والحنين موضوعان متلازمان في كل شيء، فكرًا وأدبًا وشعورًا. فالإنسان ما إن يحس بغربته ويشعر بتغير مكانه حتى يبدأ حنينه الجارف لمكانه ومنزله الأول الذي ضاع منه فشكا ذلك الضياع طويلاً، وبكاه غريبًا»(١).

وشعور الإنسان بالغربة والحنين من الغرائز الفطرية والعاطفية التي تستولي على المرء فيعيش في قلق وكآبة لشعوره بالبعد عما يهوى أو يرغب فيه(٢). وقيمته في مدى تعلقه وحنينه لذاك الجمال الذي عاش فيه، مكونًا ذاته وشعوره من خلال إعطاء القيمة الجمالية للأثر الذي تركه عليه والإحساس الذي أحسّه يوم فارقه وعاش حياة الغربة عنه.

---

(١) المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي: ٣٢٦.
(٢) ينظر: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ٩٢-٨٩٧هـ، د. منجد مصطفى بهجت: ٣٣٢-٣٣٣.

إنّ إحساس الشاعر وهو غريب متشوق، جعله يكوّن منهجًا يقوم على دمج عواطف الحنين وأحاسيس الغربة ومعاناة الشوق نحو الديار ضمن معاني المديح أو الاستصراخ وغيرها، أو يأتي بها بشكل مستقل خالصة لغرضها، ولكنها لا تخرج عن عرض تصورات الشاعر وخيالاته وتحسراته لفقدان بلده أو لبعده عنه، واصفًا المشقات والمخاوف والمتاعب في ألفاظ تعبيرية تحمل قيمة جمالية أراد من خلالها تكوين ذاته وكيانه. لذا امتاز ديوان الشعر الأندلسي بكثرة أشعاره الشاكية الباكية، وبقصائده التي تصور الغربة والبعد عن الأوطان المشبعة بحنين وشوق متلهف إلى قربها والتمرغ في أحضانها(١).

إنّ الحنين ملازم للإنسان ومشاعره أينما رحل؛ لأنه شعور فطري كما أسلفت، وقد اتسع شعر الحنين في قصائد الأندلسيين لكثرة ترحالهم وانتقالهم بين الغرب والشرق أو من مدينة لأخرى بالأندلس، لذلك فإنّ «حنين الأندلسيين جاء خاصًّا وصادقًا ومتميزًا وكثيرًا... وعمّق إحساسهم به كثرة رحيلهم داخل الأندلس نفسه، أو خارجه إلى بلاد بعيدة، وراء الأفضل من العيش، أو لمجرد الرحلة، فهم في حنين دائم إلى حياة جميلة فارقوها... وأناس يضطرب مع ذكرهم القلب، وطبيعة تهفو لجمالها النفس»(٢).

ومن أهم قيم الجمال التي تغنّى بها الشاعر الأندلسي في غربته هو ذلك الإحساس الذي شعر به في بعده عن وطنه ومع أنّ هذا الإحساس ليس جديدًا على الشعر العربي؛ إذ عبّر شعراء العصر الجاهلي عن غربتهم وتركهم أماكن عيشهم متكبدين عناء السفر، ومعبرين عن حنينهم وأشواقهم إلى الديار والمرابع التي غادروها رغمًا عنهم أو باختيارٍ منهم. والشاعر الأندلسي ترك وطنه ومدينته إلى عوالم جديدة أيضًا؛ ولكن ذكرياته وعواطفه بقيت تحنُّ إلى عالمه وموطنه الذي رحل عنه. فالشوق والحنين يراوده من آنٍ لآخر مكونًا قيمة جمالية لذاته التي انسجمت مع الماضي وعبرت عن غربته ورغبته الشديدة في العودة إلى الديار التي حالت الظروف دون عودته(٣). لذلك قلما نجد شاعرًا أندلسيًّا لم تكن الغربة ومعانيها في معاني شعره وبين مكونات هذا الشعر بما يعكس قيمًا

(١) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ٢٢٠.
(٢) دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة: ٢٠٧.
(٣) ينظر: دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، د. سعد إسماعي شلبي: ١٧٢، وينظر: الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق: ٢٦٩-٢٧٤، والشعر في ظل بني عباد: ١٧٣.

جمالية مبثوثة فيها، ومكونًا من خلالها رؤيته نحو تقبل الواقع أو رفضه، وذلك باندسجامه معها أو عدمه.

إنّ القيمة التي أوجدها الشاعر الأندلسي في شعره المعبر عن الغربة وهموم الذات في كيفية تناوله ومدى صدقه الفني الذي يُعرفُ من خلال الوصول لكوامن الصدق الذاتي والشعوري الذي مارسه الشاعر من خلال إبرازه الإحساس وإيصاله للمتلقي، رغبةً منه في إشراكه مع ذلك الإحساس الذي أحسه في غربته.

فهذا ابن حزم الأندلسي يقف على أطلال منازله في قرطبة وقد انمَحَت رسومُها، وطمست أعلامها، وخفيت معالمها، وغيّرها البلى الذي أصابها، فصارت صحارى مجدبة بعد العمران، فأبكى ذلك عينيه وهيّج فيه ذكرياتِه، فسطرها لنا شعرًا بث فيه ارتباطه بقيم الجمال التي كانت قرطبة تمنحه إياه[1]. فهاهو يقف أمامها قائلاً:

سلامٌ على دارٍ رحلْنا وغودرت ... خلاءً من الأهلينَ موحشةً قَفْرا
تراها كأنْ لم تغنَ بالأمسِ بلقعًا ... ولا عمرتْ من أهلِها قبلَنا دَهْرا
فيا دارُ لم يقفرْكِ منّا اختيارُنا ... ولو أننا نستطيع كنتِ لنا قَبْرا
ولكنّ أقدارًا من اللهِ أنفذتْ ... تدمّرُنا طوعًا لما حلَّ أو قَهْرا

إنها تحية عاشق مكره على الرحيل عن ديارٍ أصبحت رمزًا للذكريات والجمال. وهي بفقدانهم صارة موحشةً قفرًا؛ لأنها فقدت قيمتها بمغادرتهم عنها، فبهم كانت تبتسم وتفتخر وتنشر عبيرها. وهذا الرحيل هو مجبرٌ عليه ولو استطاع لآثرَ أن تكون له قبرًا، لكنها الأقدار النافذة تتحكم بمصائرهم طوعًا أو كرهًا. وهو يحمل أبياته لـ (قرطبة) وأهلها تحيته في أي مكان نزحوا، وداعيًا إياهم إلى الصبر وإن كان طعمه مرًّا، وأن لا يوقف المزن قطره عنها، ليبعث الأمل ويكون لها جمالاً بعد هذا الخراب الذي حل. يقول مخاطبًا الدهر:

ويا دهرُ بلِّغْ ساكنيها تحيَّتي ... ولو سَكَنوا المروين أو جاوزوا النهرا
فصبرًا لسطوِ الدهرِ فيهمْ وحُكمِهِ ... وإنْ كان طعمُ الصبرِ مستثقلاً مُرّا
وأيتُها الدارُ الحبيبةُ لا يَرْمِ ... ربوعَكِ جون المزنِ يهمي بها القَطْرا

(١) ينظر: تاريخ إسبانيا الإسلامية (أعمال الأعلام): ١٠٦-١٠٧.

وبلغ إحساسه بالغربة الذروة في أخريات قصيدته، فنسمع أنينه وندبه من خلال عرضه للحالة التي هو عليها من أثر هذا الإحساس. فدياره هي التي أعطت وكوّنت ذاته وقيمتها في الحياة، لذلك نراه يقول نائحًا عليها:

فوا جسمي المضنى ووا قلبي المغرى ... ووا نفسي الثكلى ووا كبدي الحرى
ويا دهرُ لا تبعدْ ويا عهدُ لا تحل ... ويا دمعُ لا تجمدْ ويا سقمُ لا تَبرا
سأندبُ ذاك العهدَ ما قامتِ الخضرا ... على الناسِ سقفًا واستقلتْ بنا الغَبْرا[1]

إنّ شعره يقوم على المقابلة بين الأمس وقيمته الجمالية والحاضر الذي هو غريب عنها بغربته عن دياره، محدثًا تناسقًا جماليًّا وتناظرًا بين الحالين، فالنعيم ورغد العيش في ظلالها وما أمسوا عليه من ذل وهوان في الغربة، والشاعر هنا تميز بمناجاته للدهر وتمني العودة إلى الماضي، وجعلها القيمة الحقيقية التي أعطت له ولغيره المكانة الرفيعة التي بفقدهم لها يُفقد كل شيء؛ لأنها المكوّن الحقيقي لقيمة الحياة وجمالها.

ونجد ابن زيدون يعاني من غربته عن قرطبة، فحبُّهُ لمدينته أشهر من أن يوصف، وديوانه مليء بأشعار الشوق والحنين إليها. ومن ذلك قوله وهو في مدينة بطليوس متشوقًا إلى قرطبة:

يا دَمعُ صُبَّ ما شِئتَ أن تَصوبا ... وَيا فُؤادي آنَ أن تَذوبا
إذِ الرَزايا أَصبَحَت ضُروبا ... لَم أَرَ لي في أَهلِها ضَريبا
قَد مَلأَ الشَوقُ الحَشا نُدوبا ... في الغَربِ إِذ رُحتُ بِهِ غَريبا
عَليلَ دَهرٍ سامَني تَعذيبا ... أَدنى الضَنى إِذ أَبعَدَ الطَبيبا
لَيتَ القَبولَ أَحدَثَت هُبوبا ... رِيحٌ يَروحُ عَهدُها قَريبا
بِالأُفُقِ المُهدي إِلَينا طيبا ... تَعَطَّرَت مِنهُ الصَبا جُيوبا
يُبرِدُ حَرَّ الكَبِدِ المَشبوبا ... يا مُتبِعاً إِسادَهُ التَأويبا
مُشَرِّقًا قَد سَئِمَ التَغريبا ... أَما سَمِعتَ المَثَلَ المَضروبا
أَرسِل حَكيمًا وَاستَشِر لَبيبا ... إِذا أَتَيتَ الوَطَنَ الحَبيبا[2]

إنّ مشاعر الحنين تمزق قلب الشاعر شوقًا وشغفًا لقرطبة، وهذا الشوق جعله يتحدث إلى الدمع والفؤاد الباكي لكي يشاركاه ألمه وشوقه وعتابه للدهر الذي سلب منه كل شيء وقرّب إليه الحزن والألم المتمثل ببُعدِه عن وطنه وخرابه وعما يذكّره به. وهذا

(١) ديوان ابن حزم الأندلسي: ٦٥-٦٦.
(٢) ديوان ابن زيدون: ٢٠٨-٢٠٩. والضريب: النظير والمِثل. ينظر: لسان العرب: مادة (ضرب).

ما دعاه لتأمل هبوب الرياح من موطنه علها تحمل نسائم وعطرًا تسكن فؤاده وتداوي بعضًا من جراحه. إنّ الحنين للوطن جعل من الشاعر العاشق الولهان المفارق للخلان المنتظر لأي شيء يبقيه متصلاً به وبذكرياته الجميلة التي كوّنت ذاته. وهذا ما أعطى الجمالية والقيمة لنصه.

وبفقدان الوطن يفقد الإنسان ذاته وقيمتها في العيش حرًّا كريمًا، ولأي إنسان ذكريات وأحاسيس استمدها من هذا المكان (الوطن) الذي إن فقده يومًا بكى على ذلك.

والشاعر الأندلسي لم يجد سوى الشعر يبث فيه حنينه، لذا كان الشعر عنده يعبر عن حالته النفسية والشعورية تجاه هذا الشوق والحنين للوطن والأهل والأحباب فتراه في بكاءٍ وحسرة وتذمرٍ دائم، لما أجبره على العيش بعيدًا عنهم قريبًا من أناسٍ يتجرع بينهم كأس الذل والمهانة، كيف لا يكون كذلك وذاته فقدت القيمة والمكانة في الحياة. وهذا ما عبر عنه الأديب أبو عامر بن الأصيلي (ت ق٥هـ)[1] في حنينه إلى سرقسطة. يقول فيها:

على سرقسطةَ أبكي دمًا	وأمواهِها العذبة المحبَبَهْ
وقومٍ كرامٍ فوا حسرةً	على الجمع منهم أو التثنيهْ
كأنَّ بلنسيةَ زينتْ	لشاطبة فاحتفتْ مُرْسِيَهْ
تعوّضتُ منها بأرضٍ أرى	أفاعيل أربابِها مُلهِيَهْ
فكم كاسٍ ذلٍّ تجرعتُها	ولم أبدِها وهي لي مُخزِيَهْ
وكم ليلةٍ بتُّها طاويًا	ونفسي عن الكشف مستحيِيَهْ
عسى اللهُ يُعقِبُنا صحةً	فمن عندِهِ الداءُ والأدوِيَهْ[2]

يبدأ الشاعر بعنصر البكاء والحسرة على موطنه (سرقسطة) وأهلها الكرام، ومن ثَمَّ يشرك مدن الأندلس الأخرى هذا الحنين، ليصل إلى مبتغاه في ذلك وهو عرض الحالة التي وصل إليه في الغربة. فالكرم والجود اللذين كان يجدهما في موطنه اختفى في بلاد الغربة، فلم يجد فيها سوى الجوع والألم، لكن ذاته التي اعتادت العز والرفعة أبت الكشف عن هذه الحالة.

(١) هو الأديب أبو عامر بن الأصيلي، من أهل سرقسطة، كان جوابة آفاق، وناظمًا وناثرًا باتفاق، وله بيت شرف وسابقة سلف، وقد أورد له ابن بسام في الذخيرة جملة من شعره ولا سيما التي بث فيها حنينه وغربته ولم نجد تاريخًا لوفاته لكننا رجحنا أنه في (ق٥ه). ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٣/٦/٦٤٦، والمغرب في حلى المغرب: ٤٤٤/٢.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ق٣/٦/٦٤٧-٦٤٨.

لذا لم يبقَ أمامه سوى كاشف الغم والهم الله سبحانه وتعالى يبثه شكواه طالبًا منه الدواء ــ والشاعر هنا يقصد العودة إلى الوطن - هكذا كان الشاعر الأندلسي يمزج بين مشاعر الحنين وما أصابه من ذل ومهانة في الغربة بمشاعر العز وطلب الرحمة من الخالق لا غيره؛ لأن قيمة الحياة وجماليتها عنده الذي يعطيها ويأخذها هو الله تعالى، لذا لم يطلبها من غيره.

وهذا الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم المعروف باشكنهادة (ت ق٥هـ)[١] يرحل إلى المشرق، فتغلبه مشاعر الشوق والحنين إلى وطنه وأهله، والمهانة التي يلقاها الغريب. وهذا ما جعله يخاطب قومه ويدعوهم إلى الاتعاظ به، وأن يبتعدوا عن الرحيل عن الوطن؛ لأنّ التجربة قاسية، فالإنسان يفقد مكانته وقيمته في الحياة جراء المذلة والغربة والبعد عن الديار. يقول في ذلك:

أيْنَ أقْصَى الغَرْبِ مِنْ أرْضِ حَلَبْ ... أمَلٌ في الغَرْبِ مَوْصُولُ التَّعَبْ
حَنَّ مِنْ شَوْقٍ إلى أَوْطَانِهِ ... مَنْ جَفَاهُ صَبْرُهُ لمَّا اغْتَرَبْ
جالَ في الأَرْضِ لَجاجًا حَائِرًا ... بَيْنَ شَوْقٍ وعَنَاءٍ ونَصَبْ
كلُّ من يلقاهُ لا يعرفُهُ ... مستغيثًا بين عُجْمٍ وعَرَبْ
لهفَ نفسي أين هاتيكَ العُلا ... وا ضياعاه ويا غبنَ الحَسَبْ
والذي قد كان ذخرًا وبهِ ... أرتجي المالَ وإدراكَ الرّتَبْ
صارَ لي أبخسَ ما أعددْتُهُ ... بين قومٍ ما دروا طعمَ الأدَبْ
يا أحبّاي اسمعوا بعضَ الذي ... يتلقّاهُ الطّريدُ المغتَرِبْ
وليكنْ زجرًا لكم عن غربةٍ ... يرجِعُ الرأسُ لديها كالذَّنَبْ
واحمِلُوا طعنًا وضربًا دائمًا ... فهو عندي بينَ قومي كالضّرَبْ
ولئن قاسيت ما قاسيتُهُ ... فبما أبصرَ لحظي من عَجَبْ
ولقد أخبركم أن ألتقي ... بكم حتى تقولوا قد كَذَبْ[٢]

إنّ فقدان المكانة وقيمتها جعلت (اشكنهادة) تائهًا وحائرًا في غربته، فزادت من ألم الوحدة والخوف، الخوف من المصير المجهول الذي هو فيه، لذا نراه يستغيث بالعُرب والعجم دون أن يجد من ينقذه؛ لأنه الغريب الذي لم تألف ذاته هذه الذوات التي حوله.

(١) هو الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم المعروف باشكنهادة، من أهل وادي الحجارة، نشأ بقرطبة وارتحل إلى المشرق بعد نكبتها وخرابها، فجال العراق وحلب وقاسى ألم الفراق والتغرب. ينظر: المغرب في حلى المغرب: ٣١/٢، ونفح الطيب: ٩٥/٢.
(٢) ينظر: نفح الطيب: ٩٥/٢.

لذلك هو في خوف دائم من فقدان المكانة التي كان يرجو ها. وما حنينُه هذا سوى لذاك الحلم الذي كان يعيشه في موطنه الأندلس، والذي أصبح عنه بعيد المنال. إنّ الذات حين شعورها بالوحدة، إذ لا أنيس يخفف عنه هذا الشعور تصل لحالة من اليأس وفقدان الثقة بالآخرين، وهذا ما وجدناه حين سمعنا بزجره لأقرانه ممن يبتغون الرحيل والنصح لهم بعدم الابتعاد عن أوطانهم؛ لأنّ الخير للإنسان في بقائه بين قومه ومكانه الذي نشأ فيه مهما ساءت الأمور.

إنّ قيمتي الغربة والحنين وأهميتهما عرفها الإنسان منذ زمن بعيد، إلا أنّ الشاعر العربي ومن خلال شعره أعطى بُعدًا جماليًّا ونفسيًّا ارتبط بمشاعره وأحاسيسه، فكوّن قيمة عليا وجمالاً يقف المرء أمامها بإجلال وتقديس.

إنّ علاقة الإنسان بذاته مرتبطة بعلاقته بما حوله، ويكوّن هذا الارتباط القيمة الجمالية التي تبعث في ذاته الأمل والرغبة في الاستمرار. والشعر الأندلسي عُرف بشعر الغربة والحنين لكثرة مصائبه ومِحَنِهِ فكانت الدافع الذي أثار شاعريته وعواطفه، وكان الملهم لنصوصهم الشعرية الحركة الفنية والحوار الجميل بين الذات والآخر. والجاعل من هذين القيمتين الغذاء للروح والمعبّر عن القلب والمظهر في شعرهم كل تلك اللهفة لما يثير كوامن النفس وما يعتريها من ذكريات الماضي التي يحيا الشاعر عليها، ويعيش في طيباتها وحلاوتها ما عاش.

ويقدم الشاعر ابن عمار معاني الغربة والشوق والتوق لذكرياتٍ عاشها في إشبيلية وشِلب في قصيدة طويلة، حين نفاه المعتضد بن عباد إلى سرقسطة. يقول في تلك المعاني:

ألا قاتلَ اللهُ الجيادَ فإنّها ... نأتْ بي عن أرضِ العُلى والمكارمِ
أشلب ولا تنسابُ عبرةُ مشفقٍ ... وحمص ولا تعتادُ زفرةَ نادمِ
كساها الحيا بُردَ الشبابِ فإنّها ... بلادٌ بها عقَّ الشبابُ تمائمي
ذكرتُ بها عهدَ الصِّبا فكأنّما ... قدحتُ بنارِ الشوقِ بين الحيازمِ
وليلٍ لنا بالسدِّ بن معاطفٍ ... من النهرِ ينسابُ انسيابَ الأراقمِ
بحيثُ اتخذْنا الروضَ جارًا تزورنا ... هداياه في أيدي الرياحِ النواسمِ
تبلِّغُنا أنفاسَهُ فنردُّها ... بأعطرِ أنفاسٍ وأذكى مناسمِ
هو العيشُ لا ما أشتكيه من السرى ... إلى كلِّ ثغرِ أهلٍ مثل طاسمِ

وصـــحبُهُ قـــومٌ لـــم يهـــذّبْ طبـــاعَهُم لقـــاءَ أديـــبٍ أو نـــوادرِ عـــالمِ[1]

إنّ خيال الشاعر ينساب مع ذكرياته في رحلة طويلة، متذكرًا ماضيه في إشبيلية وشلب بعد أن غادرهما مكرهًا، معيدًا تسلسل الأحداث والذكريات التي كوّنت في ذاته القيمة الجمالية وارتباطه بهذين المكانين منذ صباه وشبابه. ولذا تتمثل له أيامه ولياليه واضحة بجزئياتها، مسترجعًا الإحساس باللذة التي فقدها في غربته. إنّ الشاعر في تذكره هذا يحس باللذة والسعادة في آن واحد وإن كانت قصيرة ويسيرة، ومن ثَمَّ نراه يوازن هذا الماضي بكل ما فيه من إحساس وشعور مع الحاضر الذي يعيش فيه، فيجد الضياع والتشرد، وهذا ما دعاه للشكوى والتوجع مما يلاقيه في ترحاله وغربته، مع أنه لم يبتعد كثيرًا عن وطنه الأم (الأندلس)، ولكنه ليس في مرتع صباه ومكانه الأول، ولذا أحسَّ بهذه الغربة القاسية عن مكانه القريب عنه الذي لا يستطيع الوصول إليه، مع أنه استأنس بما حوى ذهنه من ذكريات أعادت إليه الجمال والقيمة في الحياة، وعلى الرغم من أنها اصطدمت بالواقع المر الذي يعانيه في منفاه.

ومن ثَمّ يأتي صاحبه الشاعر الملك المعتمد بن عباد وينقل لنا مشاعر الحنين إلى مدينة شِلب التي أمضى فيها شبابَه وسنوات من اللهو حينما تولى أمرها من قبل أبيه[2]؛ فأوجد قيمة جمالية في شعره من خلال بث مشاعر الحنين داخله، وهذه المشاعر جعلته يستذكر أيامه ولياليه الصاخبة. ومن هنا نراه يحمّل صاحبه أبا بكر بن عمار الشاعر تحيته وشوقه لتلك الأيام التي قضاها معه من خلال تذكرها وما فيها. يقول:

ألا حـــيّ أوطـــاني بِشِـــلبٍ أبـــا بَكـــرِ وَسَـلهُنّ هَـل عَهـدُ الوِصـال كَمـا أدري
وَسَـلِّم عَلـى قَصـر الشَّـراجيب عَـن فَتًـى لَـــهُ أَبَـــدًا شَـــوقٌ إِلـــى ذَلِـــكَ القَصـــرِ
مَنـــازِلُ آســـادٍ وَبِـــيضِ نَـــواعِمٍ فَناهيـكَ مـن غيـل وَناهيـك مِـن خِـدرِ
وَكَـــم لَيلَـــةٍ قَـــد بِـــتُّ أَنعَـــمُ جُنحَهـــا بِمُخْصَـــبَةِ الأَرداف مُجدَبَـــةِ الخَصـــرِ[3]

ولكن مشاعر الحنين تبلغ ذروتها عنده في منفاه، إذ الغربة وذهاب المُلك وإحساس الذل. فهو يقول في نصٍّ آخر متشوقًا لإشبيلية:

(١) محمد بن عمار: ٢١٠-٢١١. وحمص: هي إشبيلية. وطاسم: من طَسَمَ الشيءُ والطريقُ وطَمَسَ يَطْسِمُ طُسُومًا: دَرَسَ. وطَسَمَ الطريقُ: مِثْلُ طَمَسَ. لسان العرب: مادة (طسم).
(٢) ينظر: قلائد العقيان: ١/٥٤-٥٥.
(٣) ديوان المعتمد بن عباد: ١١-١٢.

غَريـــب بـــأرضِ المغـــربينِ أســـيرُ ... سَـــيَبكي عَلَيـــهِ مِنبَـــرٌ وَسَـــريرُ
وَتَندُبُـــهُ البـــيضُ الصَّـــوارِمُ وَالقَنـــا ... وَينهـــلُّ دَمـــعٌ بيـــنَهُنَّ غَزيـــرُ
سَـيبكيهِ فـي زاهيـه وَالزاهـرُ النَّـدى ... وَطُلّابُـــهُ وَالعَـــرفُ ثَـــمَّ نَكيـــرُ
فَيـا لَيـتَ شِـعري هَـل أَبيـتنّ لَيلَـةً ... أَمـــامي وَخَلفـــي رَوضَـــةٌ وَغَـــديرُ
بِزاهِرِهـا السـامي الـذُرَى جـادَهُ الحَيـا ... تُشـــيرُ الثُرَيّـــا نَحوَنـــا وَنُشـــيرُ
تُـــراهُ عَســـيرًا أَم يَســـيرًا مَنالُـــهُ ... إِلّا كُـــلّ مـــا شـــاءَ الإِلَـــهُ يَســـيرُ
قَضـى اللهُ فـي حِمـصَ الحِمـامَ وَبُعثِـرَت ... هُنالِـــكَ مِنّـــا لِلنُشـــور قُبـــورُ[1]

إنّ قيمة هذا النص وجماليته تكمن في محاولته إيصال صوت الشاعر في محنته وإحساسه بالغربة في منفاه. فقد راودته خيالات وأمنيات العودة إلى وطنه (إشبيلية)، فهو يسترسل مع هذه الأحلام والأماني؛ لأنّ قيمة الحياة وجماليتها لم تعد مُتاحة أمامه إلا في هذا العالم المتخيل والذكريات المعاشة، ولكن حتى الأماني تصطدم بالواقع المر الذي يعيده لإحساسه بالغربة، فالقيد وألم الحرمان وذل المنفى يكبّل ذاته عن إدراك الحلم الذي يرجوه. إنّ جمال النص وقيمته في العاطفة المخفية وراء الخيال والحلم، فما حنينه وشوقه إلا الخيط الأخير الذي يشده نحو الماضي بكل ما فيه من جمال وقيمة تسعد ذاته.

ولعل مثل هذا الإحساس الأليم والمصير المذل دعا الزاهد الفقيه عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال (ت٤٨٧ هـ)[2] أن يترك الأندلس وعيشها وعدم البقاء فيها، ولا سيما (طليطلة)؛ لِما حلَّ بها من دمار وخراب جعلاه يفقد الأمل ويطالب بالرحيل مهما كان. وعلى الرغم من خطورة دعوة ابن العسال والحرص على عدم الاستجابة لها أو التفكير بها، إلّا أنّ هذه الأبيات صدرت عن مشاعر حقيقية ونفسٍ ملتاعة مما حلّ بالمكان الذي عاش فيه. يقول ابن العسال:

يـــا أَهْـــلَ أَنْـــدَلُسٍ حُثّـــوا مَطِـــيَّكُمُ ... فمـــا المقـــامُ بهـــا إلّا مِـــنَ الغَلَـــطِ
الثـــوبُ يَنْسِـــلُ مِـــنْ أَطْرافِـــهِ وأَرى ... ثَـــوْبَ الجزيـــرةِ مَنْســـولاً مِـــنَ الوَسَـــطِ
ونحـــنُ بـــين عـــدوٍّ لا يفارقُنـــا ... كيـفَ الحيـاةُ مـع الحيّـاتِ فـي سَـفَطِ![3]

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ٩٨-٩٩.
(٢) هو أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال، زاهد طليطلة، المشهور فيها بالزهد والمكانة، وقد رحل عن طليطلة إلى غرناطة وهناك توفي سنة (٤٨٧هـ). ينظر: المغرب في حلى المغرب: ٢١/٢، وراية المبرزين وغاية المميزين: ٨١.
(٣) نفح الطيب: ٣٥٢/٤. السَّفَط: هو الشيء الَّذِي يُعَبَّى فِيهِ الطِّيبُ وَمَا أَشبهه مِنْ أَدَواتِ النِّسَاءِ. ينظر: لسان العرب: مادة (سفط).

إنّ الشاعر حين فقدَ الإحساس بالعيش جراء الخراب والدمار جعله في حالة من التخبط والتشاؤم اللذين جعلاه يطلق هذا الطلب الغريب، فبدل أن يبكي ويحث على الدفاع نراه يحذّر من البقاء داعيًا إلى الابتعاد، وهذا أمر غريب. ولكن يمكننا أن نقرأ النص قراءةً ثانية، وذلك بجعلها إنذارًا لأهلها وطلبًا منهم في الدفاع وعدم الاستسلام والموت بكرامة وإلا فليرحلوا ويلاقوا مصير الذل في بلاد الغربة، فما قيمة البقاء دون دفعٍ وعمل جاد، وهنا تكمن جمالية النص وقيمته في عمق المعنى وخفائه. إذن هو تذكير وتحذير، لكن جاء بأسلوب المستسلم المتشائم.

إنّ الشعور بالحنين يمثل القيمة الجمالية التي كانت تتضمن الغربة. فالرغبة الذاتية الصادقة تنبع من القلب وتتحدث بها الشفاه لتمتزج بعاطفة قوية تعبر عن اللهفة والشوق لكل ما يثير كوامن النفس، وما يعتريها من ذكريات الماضي التي يحيا الإنسان على شذاها. وهذا الحنين يمثل نزعة إنسانية عامة نراها عند الشعراء جميعًا، ولا سيما الشاعر الأندلسي الذي امتزج بموطنه فكوّن ذاته وقيمتها الجمالية من خلال توحده معها، لذا كان هذا الإحساس (الحنين) لكل قيمة كوّنت في داخله أثرًا جميلاً وذكرياتٍ خلّدت في خياله الإحساس والجمال.

فهذا عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي (ت٤٠٣ هـ)[١] يحن ويتشوق إلى رفاقه وأهله حين توجَّهَ لأداء مناسك الحج وفريضته المطلوبة. يقول:

مَضَتْ لي شهورٌ منذَ غِبتُم ثلاثةٌ ... وما خلتُني أبقى إذا غبتُمُ شهرا
وما لي حياةٌ بعدَكُم أستلذُّها ... ولو كان هذا لم أكنْ بعدَها حُرّا
أعلِّلُ نفسي بالمنى في لقائِكُم ... وأستسهلُ البرَّ الذي جُبْتُ والبحرا
ويؤنسُني طيُّ المراحلِ دونَكُم ... أروحُ على أرضٍ وأغدو على أخرى
وتاللهِ ما فارقتُكم عن قِلًى لكم ... ولكنّها الأقدارُ تُجرى كما تُجرى[٢]

إنّ هذا الحنين قد سلب منه كل متعة وطعم للحياة، مع أنّ بُعدَهُ عنهم ليس لوقت طويل، أو لسبب مكروه، إلا أنها المشاعر والأحاسيس تغلب على المرء فلا يجد سوى

(١) عبد الله بن محمد بن يوسف أبو الوليد المعروف بابن الفرضي (ت٤٠٣ه)، كان حافظًا متقنًا عالمًا، ذا حظٍّ من الأدب، وله من التصانيف (تاريخ علماء الأندلس)، له رحلة إلى المشرق. ينظر: جذوة المقتبس: ٣٩٦/١، والمطرب: ١٣٢، والمغرب في حلى المغرب: ١٠٣/١.
(٢) المغرب في حلى المغرب: ١٠٤/١.

الشعر يبث من خلاله شوقه وحنينه. فهو يستسهل كل صعب من أجل سرعة اللقاء. فالقيمة الجمالية التي أرادها في إيصاله للمشاعر وتبيان ثقل الزمن وطوله حين الفراق، فهو يعد الأيام والليالي التي فارقهم فيها؛ لأنّ الإحساس بالغربة وهو بعيد عنهم أخذ منه كل مأخذ، فلم يجد سوى هذه السلوى وهذه القيمة كي يتمسك بها ليحافظ على ذاته ويكوّن جماليتها من خلال الحنين.

وهذا ابن شُهيد يصور حاله بعد فراقه لقرطبة وخرابها، نائحًا عليها وعلى أهلها جراء ما حلَّ بها، فالشوق والحنين وإحساس الغريب هو ما بقي له بعد هذا الفقد. يقول:

مـا فـي الطّلُـولِ مِـن الأحِبَّـةِ مُخْبِـرُ	فَمَـن الّـذِي عـن حالِهـا نَسْـتَخْبِرُ
لا تَسـألَنَّ سِـوى الفـراقِ فإنَّـهُ	يُنْبِيـكَ عـنهم أَنْجـدُوا أَم أَغْـوَرُوا
جـارَ الزَّمـانُ علَـيْهِمُ فَتَفَرَّقُـوا	فـي كُـلِّ ناحِيّـةٍ وبـادَ الأَكْثَـرُ
جَـرَتِ الخُطُـوبُ علـى محـلِّ دِيـارِهِم	وعلَـيْهِمُ فَتَغَيَّـرَتْ وتَغَيّـرُوا
فـدَعِ الزَّمـانَ يصـوغُ فـي عرصـاتِهِم	نُـورًا تكـادُ لـه القُلُـوبُ تُنَـوِّرُ
فلِمثْـلِ قُرْطُبـةٍ يقـلُّ بُكـاءُ مَـن	يَبْكِـي بعَـيْنٍ دَمْعُهـا متَفَجِّـرُ[1]

إنّ الشاعر يحاول أن يكوّنَ صورةً لما حلَّ من خلال سؤاله الأحبة، لكن أين هم؟! فما في الطلول منهم من يخبره، فالكل غادرَ إلى تحتها (القبر) أو فوقها (الغربة). وهذه الأحداث قد غيّرت القيمة الجمالية لهذه المدينة وأهلها من كونهما منارين للعلم والمعرفة إلى الخراب والتشتت. فهذا الحنين ليس من أثر الغربة بقدر ما هو للفقد والإحساس بالضياع؛ لذا نراه يعلل نفسه بهذا البكاء والندب، كيف لا ومن يبكي قرطبة رمز الجمال وقيمتها الحضارية في الأندلس.

ومثله أبو عيسى بن لبون (ت ق٥هـ)[2] الذي يحنُّ للأيام والليالي السعيدة، مصورًا ألمه وشوقه في إطار ومضمون الطبيعة وما كان فيه من لذة ومتعة. يقول:

يا ليت شعري وهل في ليت من أرَبٍ	هيهـات لا تُبتَغَـى مـن ليـتَ آرابُ
أيـن الشـموسُ التـي كانـت تطالُعنـا	والجـوُّ مـن فوقـه لليـل جِلْبـابُ
وأيـن تلـك الليـالي إذ تُلـمُّ بنـا	فيهـا وقـد نـام حُـرَّاسٌ وحُجَّـابُ

(١) ديوان ابن شُهيد: ١٠٩.

(٢) لبون بن عبد العزيز بن لبّون من أصحاب القادر بن ذي النون، كان معدودًا في الأجواد موصوفًا بتجويد القريض. ينظر: الحلة السيراء: ١٦٧/٢، والمغرب في حلى المغرب: ٣٧٦/٢، ونفح الطيب: ٦٤٩/١.

تُهْـدِي إلينـا لُجَينًـا حَشْـوُهُ ذَهَـبٌ أنامـلُ العـاجِ والأطـرافُ عُنَّـابُ[1]

إنّ حنينه هو للذات التي فارقت هذه المتع وأصبحت لديها نوعًا ومفهومًا جديدًا لقيم الجمال التي كانت تحكمه سابقًا من لهوٍ ومتع... وغيرها. وما حنينه هذا إلا حنينٌ للقيم التي أعطت لذاته وكوّنتها في قيمة اللهو ومفهومه الذي غادره، ومن ثَمَّ يعود في نصٍّ آخر ليطلب الإنصاف ممن يحن إليهم مع أنهم قد نسوه. فذاته تحاول فرض نفسها وهي مرغمة في ذلك لتحكُّم قيمة الحنين ومشاعره على كيانه وما هو فيه من غربة. ويقول أيضًا:

لَحَـا اللهُ قلبـي كـم يحـنُّ إليكمُ وقـد بعـتمُ حظّـي وضـاع لـديكمُ
إذا نحـنُ أنصـفناكمُ مـن نفوسِـنا ولـم تُنصـفونا فالسَّـلام علـيكمُ[2]

أمّا الوزير الكاتب أبو عمر الباجي (ت ق٥ هـ)[3] فيحنُّ لأهل سرقسطة الذين لم يلقَ من أهلها سوى كل ضاحك بسّام. لذلك لما رحل عنهم حنَّ إليهم أيَّ حنين، ممضيًا وقتَهُ بين أرقٍ وأنين عليهم، يقول في مشاعر الحنين هذه:

عزمـتُ علـى رحلتـي عـنكمُ فسِـرتُ بقلـبٍ شـديدِ الأَلَـمْ
أضـاحِكُ صـحبي وأطـوي الفِجـاج وفـي كَبِـدي لاعِـجٌ كالضَّـرَمْ
فمـا أنْـسَ لا أنْـسَ ذاكَ الحيـاءَ وذاك السـناءَ وتلـك الشِّـيَمْ
ودُنيـا بِكُـمْ طَلْقَـةَ المُجتَلـى ودهـرًا بكُـم واضـحَ المبتَسَـمْ
وسـاعاتِ أُنْـسٍ تجـولُ النُّفـو سُ فيهـا مجـالَ حمـامِ الحَـرَمْ
أحِـنُّ إلـيكم ومَـنْ شَـاقَهُ تـذكُّرَ عهـدِكُمُ لـم يُلَـمْ[4]

إنّ فقدان الشاعر لقيم الجمال جعلته يحنُّ منذ اللحظة الأولى من فراقهم، لكن مع شدة الألم لم يُظهر ذلك الإحساس، مقدمًا الابتسامة مع أنّ النار تشتعل في قلبه شوقًا وحسرةً عليهم. إنّ القيم الخلقية الخاصة بهم جعلته يحنُّ إليهم، فهو لم ينسَ حياءهم وشيمهم وأوقات أُنسه معهم... لذا لم يجد بُدًّا من تكوين هذا المفهوم وهذه القيم في ذاكرته وذاته؛

(١) الحلة السيراء: ١٧٠/٢.
(٢) م. ن: ١٧١/٢.
(٣) هو أبو عمر يوسف بن جعفر بن يوسف الباجي، نسبة إلى باجة وهي من مدن الأندلس. له رحلة إلى المشرق، إذ حجَّ ووُلّي القضاء بحلب، ثم عاد إلى الأندلس فجلَّ قدره عن المقتدر بن هود ملك سرقسطة. ينظر: قلائد العقيان: ٣٠٠/١، والمغرب في حلى المغرب: ٤٠٥/١.
(٤) قلائد العقيان: ٣٠٢/١. الضرم: مصدر (ضرم ضرمًا)، وضرمت النار وتضرّمت واضطرمت: أي اشتعلت والتهبت. أو هو الحطب الذي يشتعل سريعًا. ينظر: لسان العرب: مادة (ضرم).

لكي تبقى محافِظة على عهدها بذاك الجمال الذي هو مفارقه، ومن ثَمَّ أعطى سببًا مقنعًا لهذا الحنين وهذا الإحساس.

أمّا حنين الغربة ومشاعرها التي يحسها مَن تُسلبُ حريتُهُ ويودَعُ السجن فاقدًا الإحساس بالزمن والمكان، تكون في محاولته العودة للماضي وما كان من عزٍّ وشرف. وهذا الشعور مفروضٌ على الذات، لذا لم يجد صاحبه سوى الحنين والشوق لكل شيء. وهذا ما مثّله قول أبي الأصبغ عيسى بن الحسن (ت ق٤ هـ) الذي أُلقي في السجن، فهو يحنُّ لكل قيم الجمال الذي هو بعيد عنها وعن أخبارها. يقول متسائلاً:

ليتَ شعري كيفَ البلادُ وكيف الـ ـإنسُ والوحشُ والسما والماءُ؟
طالَ عهدي عن كلِّ ذاك ولَيلي ونهاري في مقلتيَّ سواءُ[1]

إنّ مشاعر الغربة حين تتمكن من صاحبها تنغص عليه العيش ولا يحس معها للحياة طعمًا، ولا سيما حين مرور الأعياد والمناسبات السعيدة. فهذا ابن زيدون يمر عليه عيد الأضحى وهو وحيد دون أنيس يسليه ويبعد عنه مشاعر الغربة، ويطفئ نيران شوقه وحنينه. لذلك لم يجد سوى الذكريات تعيد له رسم قيم الجمال وما كان فيه من لهو ومتعة في قرطبة، إذ الأصحاب ورفاق الكأس. يقول متحسرًا على ما مضى:

خَليلَيَّ لا فِطرٌ يَسُرُّ وَلا أضحى فَما حالُ مَن أمسى مَشوقًا كَما أضحى
لَئِن شاقَني شَرقُ العُقابِ فَلَم أَزَل أَخُصُّ بِمَمحوضِ الهَوى ذَلِكَ السَّفحا
وَما انفَكَّ جوفِيُّ الرُّصافَةِ مُشعِري دَواعِيَ ذِكرى تُعقِبُ الأَسَفَ البَرحا

ومن ثَمَّ نراه يحنُّ إلى أيّامه فيها متذكرًا أماكن اللهو والشرب حول أنهرها، فهي معاهد للذاته وموطن شبابه وصباه. إنه يفتقد هذه القيم التي اعتادها؛ لذلك نراه يحنُّ ويطالب العودة ولو من خلال برهة قصيرة، لكي يعيد لذاته ما فقد من جمالية الحياة وقيمها التي اعتادها، يقول:

وَأيّامُ وَصلٍ بِالعَقيقِ اقتَضَيتُهُ فَإِلّا يَكُن ميعادُهُ العيدَ فَالفِصحا
وَآصالُ لَهوٍ في مُسَنّاةِ مالِكٍ مُعاطاةَ نَدمانٍ إِذا شِئتَ أَو سَبحا
مَعاهِدُ لَذّاتٍ وَأَوطانُ صَبوَةٍ أَجَلتُ المُعَلّى فَي الأَماني بِها قِدحا
أَلا هَل إِلى الزَّهراءِ أَوبَةُ نازِحٍ تَقَضّى تَنائيها مَدامِعَهُ نَزحا[2]

(١) المغرب في حلى المغرب: ٢١٢/١.
(٢) ديوان ابن زيدون: ٢٠٥-٢٠٦.

إذن على ضوء ما تقدم نستطيع القول إنّ الشاعر الأندلسي كوّن في رحيله وتجواله بين مدن الأندلس وخارجها ذاته وقيمتها في الحياة، واستطاع أن يعبر عن شوقه وحنينه ومدى تعلقه بالأرض والأهل والأحبة، فأعطى لنا أنموذجًا للروح المكلومة بهذا الفراق وهذا التغرب من خلال لوحة الوداع والحنين ومشاعر الغربة والاشتياق، ومكونًا القيمة الجمالية التي أعطت لصوره الشعرية مزيدًا من الجمال والمتعة، وعلى الرغم من الألم والمشاعر الإنسانية الحزينة التي بثها في هذا الشعر، إلا أنّ الجمال والإحساس الفني الصادق طغى على تلك المشاعر. لذا خلدت نصوصهم الشعرية القيم التي نادوا بها من خلال حديثهم عن الغربة والحنين وما فيهما من قيم الجمال التي كوّنت ذواتهم وخلدت مشاعرهم.

ورأيتُ عدم الإطالة في هذا الموضوع، إذ إنّ القيم الجمالية الروحية قد وضحت من خلال النصوص الشعرية التي استشهدتُ بها، وأما باقي النصوص فهي تدور فيما استشهدتُ به شعورًا ونظمًا. وقد ترجمتْ هذه النصوص كل تلك العواطف الدفينة المتميزة التي كانت عند شعراء الأندلس، وهي (العواطف) دلت على شخصية الأندلسي التي عُرفت بمثل هذه الرقة في المشاعر، والبساطة في العواطف، فكوّنت كل هذه القيم الجمالية الروحية في أشعارهم، وشملت معانيها الرائعة وألفاظها العذبة وصورها المتميزة.